جولات فى القاهرة

تأليف ر . ل ريفشير

هى العناية الآلهية التى أنقذت القاهرة من التدمير كلما شبت الفتن واحتدمت الحروب. فتقاصرت دونها قنابل الألمان وماحشدوا من جيش وعتاد ، وتحطمت قبل أن تصل إليها قوى المغول المدمرة المخربة ، وارتد عنها الصليبيون فى ذلة وانكسار ، وبقيت القاهرة وحدها تحمل تراث الإسلام الفنى المجيد ، كاملا غير منقوص ، واحتفظت القاهرة بسلسلة متصلة الحلقات لكل عصور الأسر الاسلامية الحاكمة ، من يوم أن شاء الله لدينه أن يستقر على ضفاف النيل ... ونجد هذا التراث فيما ورثناه من عمائر وتحف ومخطوطات ، تظل دائماً تذكرنا بجمال الماضى وعظمته وجلاله ، وتظل دائماً تحفزنا على استرجاع مجد أجدادنا ، فنعيد للاسلام قوته وعزته وروعته .

فإن تمكن المؤلفة قد اختارت القاهرة تجول بين آثارها الاسلامية شارحة أصولها الفنية فى هذا الكتاب ، فقد أحسنت الاختيار — وإن يمكن للمؤلفة فى أعناقنا — نحن العرب — جميلا لفرط غيرتها وتحمسها لآثار الإسلام ، أو لأنها اتخذت من الصحافة منبراً تلقى من فوقه الإرشاد للعناية بآثار الإسلام ، فدفعت المسئولين إلى المحافظة عليها ، فإننا قوم لا ننكر الجميل .. ولكن الأمر الذى استحقت من أجله عطف جلالة الملك الراحل ورعاية جلالة الفاروق المعظم ، فأنعم عليها بنشان الكمال فى عيدها الثمانيني ، إنما هو صدقها فى دعوتها للآثار الإسلامية ، تراه واضحاً فيما تكتب من مؤلفات أو تلقى من محاضرات ، صحبت بها شعور آلاف من الأجانب الذين كانوا لا يدرون عن القاهرة إلا تلك الاكاذيب المخترعة التى حشرها فى أدمغتهم مرتزقة الاستعمار ، وكتاب أقاصيص الخيال الدنيء .

وكتاب « جولات فى القاهرة » هو دراسة تاريخية وافية لمختلف المآثر الإسلامية ، من مساجد وأضرحة ومدارس وتكايا وقصور ومنازل خاصة ، أو قناطر وأسبلة وأسوار وبوابات مع إلمامة طيبة بمحتويات دار الآثار العربية وما ضمت من تحف نفيسة . وقد اتبعت المؤلفة فى تبويب كتابها هذا طريقة الجولات بحيث يستطيع القارىء أن يقوم بنفسه بهذه الجولات وأن يدرس الآثار الإسلامية فى القاهرة جملة وتفصيلا دون أن يصعب عليه الأمر أو يصيبه ملل أو كلال .

فيتناول الكتاب أهم الآثار القائمة فيقدم للاثر لمحة سريعة عن تاريخ حياة صاحبه ، والأحوال التى بنى فيها الأثر ، والآراء التى أثيرت حوله ، ويرد عليها ، ثم يدرسه من الناحية المعمارية ، ويشرح الأساليب الفنية التى اتبعت فيه ، والتأثيرات الغريبة التى اقتبسها الفنان المسلم بعد أن صقلها بما يلائم ذوقه وفنه ودينه

وبالرغم من أن الفنان المسلم كان منكراً لذاته ، معتزاً بفنه ، فلم يكن كثير الاهتمام بذكر اسمه على كل المآثر التى بناها ، أو التحف التى صنعها ، إلا أن المؤلفة تشاء أن ترد إليه حقه واعتباره الأدبى فتقول : « ويبدو لى أن الفنان المسلم الذى عاش فى تلك الأيام كان عاشقاً للجمال لذاته ، بل كان مخلصاً فى محبته لانتاجه ، فنرى مثلا صانع الفخار المصرى يفرغ غاية الجهد فى العناية (بشابيك القلل) وهو يعلم تماماً أنها خافية محجوبة عن الناظرين » ...

وترد على الذين يتهمون المسلمين بهدم عمائر غيرهم ليحصلوا منها على مواد البناء : « حقاً أن المسلمين كانوا يستولون على أعمدة الكنائس المسيحية والمعابد المصرية القديمة ليستعملوها فى عمائرهم ... ولكن مسيحى إيطاليا كانوا أيضاً يتبعون نفس الطريقة ، فدمروا المعابد الرومانية الكلاسيكية ليحصلوا على أعمدتها » ...

وطالما نقدت احتلال القوات الانجليزية للقلعة واستعمالهم مسجد الناصر محمد بن قلاوون « فى سنة ١٨٨٥ كان هذا المسجد محولا إلى سجن حربى ، إلا أن أحد الضباط الانجليز زاد الأمر سوءاً فحوله إلى مخزن للذخائر فى سنة ١٩١٥ فبات عرضة للنسف بين لحظة وأخرى فيختفى من عالم الوجود أثر فنى جميل » .

على أن طول الاحتلال للقلعة ترك هذه المنطقة بكراً ، فى حاجة إلى الكشف والتنقيب « فان دراسة الأستاذ كريزويل لم